الزمان والفضاء في رواية "السيل"

Time and Space in "The Torrent"

الدكتور الجيلالي الغَرَّابي
جامعة محمد الأول، وجدة
(المغرب)
abouwael01@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2020/.12/06 تاريخ القبول: 2021/.12/25

ملخص:

لقد تناولت في هاته الدراسة مكوني الزمان والفضاء في رواية "السَّيْل" للروائي أحمد التوفيق، وقسمتها إلى عنصرين اثنين، عالجت في أولهما الزمان في المتن المدروس، وتطرقت إلى سير الزمان، والزمان من منظور الشخصيات، والزمان التاريخي. وحددت في ثانيهما دلالاتِ الفضاء من قرية ونافذة ومدينة ومعمل وبيت وغابة وجحر...

الكلمات المفتاحية:العناصر المكونة للسرد؛ علم السرد؛ الزمان؛ الفضاء؛ السيل؛ أحمد التوفيق.

Abstract

In this study, I dealt with time and space in "The Torrent" by novelist Ahmed Tawfiq. I divided it into two elements: in the first, I studied the time in the studied corpus: the course of time, the time from the point of view of the characters and the Historical time. In the second, I studied the connotations of space: the village, the window, the city, the factory, the house, the forest and the burrow ...

Keywords: The constituent elements of narration; Narration; Time Space; The Torrent; Ahmed Tawfiq

المقدمة:

يشكل عنصر الزمان مكوناً هاما من مكونات السرد، ويحدد طبيعة الرواية، ويشكلها، ويؤثر في العناصر الأخرى، وينعكس عليها... ويعد عنصر الفضاء من أكثر العناصر المشكلة للسرد أهمية، ويتحدد في الرواية من خلال أشكال، ويتخذ معانيَ متعددة، إلى أن يشكل أحيانا سببَ كينونة العمل[1]. إن لكل رواية علاقة ما بالفضاء، و"حتى عندما يضرب الروائي عن الوصف، فإن الفضاء يكون، على كل حال، متضمناً في المحكي"[2]. ويحتاج أي سارد إلى فضاء، يمتد تأثيره إلى أن يحتويَ العناصرَ الداخلةَ في تشكيل السرد جميعَها...

أولا:_الزمان في رواية "السيل"

أ_سير الزمان:

عرفت أحداث رواية "السيل" للروائي أحمد التوفيق[3]_[4] سيراً زمانيّاً تصاعديّاً عموديّاً، وشهدت تسلسلاً وترتيباً وتنظيماً واضحين. إذ كانت أحداثها تتحرك، وتتنامى، وتتناسل باستمرار، لأن الزمان لا يتراجع، ولا يتوقف، بل يشق طريقه إلى الأمام، ويسير في اتجاه نهايته دائما...

بدأ ذلك بنشوء محمد بيزين راعيا عند أسرة أيت بلا، وتطور بتدمير السيل الأول قطيعَه، وهجرته إلى المدينة، وبلغ أوجه بغدوه رئيس المعمل، وانخراطه مع الوطنيين، وانتشائهم بالاستقلال. وبعد ذلك، أخذ اتجاه الأحداث مسيراً عكسيا تنازليا، إذ أطلق بيزين العنان للشهْوات والملذات، فبذر ثروته. أعطاه فارياس مالا، وطلب منه أن يعود إلى القرية، وأن يتزوج منها، وأن يرجع رفقة زوجه إلى المدينة. قفل إلى القرية، وخبأ ماله في الغابة، فجاء السيل الثاني، وطمسه، فجن بيزين، وقضى على يد ثعبان.

رُغم ما قيل عن غلبة الترتيب الزمني وسيطرة التسلسل الحدثي، فإن الروائي استعمل تقنياتٍ كسرت سير الزمان العادي، منها:

1_الإسترجاع:

إن الاسترجاع تقنيةٌ روائية موجودة في الروايتين الكلاسِيَّة والحديثة، وسمي استرجاعا لأن الروائي يتذكر أحداثاً سبقت، أو يسترجع أوصافاً سلفت، فيرجع بالقارىء إلى الماضي لإنارة الحاضر. يساعد على تلوين سطح السرد، وتوقيف تدفق الزمن، والإبتعاد عن التعجيل بوضع حد لخطاب الرواية. يطلق عليه أيضا التذكر، والعودة إلى الوراء.

ضمت "السيل" مجموعةً من الاسترجاعات، منها أن صاحب المتن شرع في الحديث عن بيزين راعيا، ثم عاد إلى الوراء ليحدثنا عن مجيء أبيه العطار إلى القرية، فالتفت النساء حوله، وأعجبن بما في سلته، وداعبنه بالكلام اللذيذ... ثم عَرَّفته خادمةٌ شمطاءُ خادمةً شابة مليحة... تزوجها، ومكث معها أربعة أشهر، ثم فر، وتركها حاملا. وضعت ثلاثة أبناء، فهلك منهما اثنان، ونجا واحد (بيزين)، وماتت إثر نزيف دام ثلاثة أيام. تولت الخادمة الشمطاء حمل الطفل على ظهرها، وأرضعته حليب البقر حتى اشتد عوده.

يهدف هذا الاسترجاع إلى إيضاح عمل والدي بيزين، وإبراز طريقة تعرفهما وزواجهما، وهروب الأب بعد حمل الأم، ووضعها، وموتها بعد ذلك مباشرة، ونشوء بيزين يتيم الأبوين، واهتمام الخادمة الشمطاء به.(5)

ومنها أن بيزين خرج يوما بقطيعه إلى الغابة، وبدأ يصعد الجبل، وشرعت خياشيم أنفه تعتصر ما في الهواء من الندى، فشم راحة الحبق، فتذكر صاحبته لومي، ورجا لو كان لها هي الأخرى قطيع تصعد به الجبل. وتذكر أنه كان يتردد على بيتها، ويتناول الشاي معها، فيخبرها بما يشوقها في الغابة...(6)

هذا استرجاع يصور تعلق بيزين بلومي وتعلقها به، وما كان يدور بينهما من حديث وهما يحتسيان الشاي.

ومنها أن بيزين حين عاد من المدينة إلى القرية، وضعت أمامه قصعة كسكون فوقه خروف مشوي، فتذكر السيل، وكراع الغنم فوق الرمل، فكاد يتقيأ، واحتقن محياه، وضاق تنفسه، فشرب الماء، وأكل الكسكون، ولم يقرب اللحم.(7)

يظهر هذا الاسترجاع مدى تأثير السيل في نفسية بيزين رغم مرور عدة سنين، ومدى وقعه عليه، فهو لم ينسه، وبمجرد أن رأى الخروف فوق الكسكون، تذكر الخراف التي أهلكها السيل، وبدت كراعها على الرمال.

2_الإستباق:

الإستباق مقطعٌ سردي، يسرد أحداثا سابقة عن أوانها، أو يتوقع حدوثها[8]. يمثل عكس الاسترجاع، ويسمى كذلك القفزة إلى الأمام.

شملت "السيل" استباقاتٍ، إذ لما تذكر بيزين لومي، أحس بالذهول والكآبة، وتغير مزاجه، وتنبأ بحدوث شيء سيء... في يوم من أيام ذلك الشهر نفسه، هاجمه السيل، ودمر القطيع، فتعرض للتعذيب والمعاملة الخشنة من قبل أصحابه.[9]

وعندما وقع في الرذيلة مع فيبي، اِنتابته الكوابيس المفزعة في نومه، وذكر السيل عن غير وعي منه، وحين استفاق، شعر بالخوف... لما عاد إلى القرية، خبأ ماله في الغابة، فأتلفه السيل الثاني، مما جعله يفقد رشده، ويلقى حتفه.[10]

3_الوقفة:

تدعى الوقفة أيضا البطءَ أو التبطيءَ أو التعطيل، وهي تقنية يلجأ إليها المؤلف قصد توقيف الحكي، وتعطيله. أهم ما جسد ذلك:

3_1_الوصف:

إن الوصف "هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات"[11]، وأحسنه "ما نعت به الشيء حتى يكاد يمثله عيانا للسامع."[12]

لقد اكتسح الوصف الرواية اكتساحا، وغطى مساحتها جلها، وبرع فيه الروائي، خاصة لما تعلق الأمر بوصف الأمكنة، واستجلاء ملامح الشخصيات، والحديث عن الطبيعة. من ذلك قوله مثلا:

"(...) ثم رأته وقد دلف في حلم حقيقي رأى فيه السحاب تعتصر ماء والشمس تتحدى الجو المحمل بالندى وتخلق قوس قزح، ثم رأى الشمس تسفح بسيوف أشعتها دماء ملائكة تتولد من ذلك القوس. ورأى نفسه

صبيا مدللا تدفعه لومي إلى أن يرتقي القوس مرات ومرات، وكان يشعر أن متن القوس تحت منكبيه صهوة من حرير، وفي كل مرة كان يتوسل إليها كالتائه ألا تتركه يضيع في بلقع تزهق فيه أنفاسه، وكلما ترجاها تداركته بسقى من ماء الورد وعصير الزيزفون، فتتجدد قدرته على محاولة الصعود، إلى أن وصل قمة القوس فعلا، فإذا به يتدحرج على السفح الآخر ويهوي إلى درك مشاعره، وعندها شعر بما تبقى لديه من شعور أن صاحبته طفقت تجمع أشلاءه وتحاول أن تعيد ترتيبه إنسانا متماسكا كما كان."[13]

وقوله كذلك:

"(...) خرج محمد من تحت ستار الظلام والعشاء توشك أن يؤذن لها، دخل إلى وسط الدار وألقى بدراجته على الجدار وكأنها لم تعد تلك التحفة التي يتناولها برفق شديد، ودخل الغرفة، وتوجهت إليه الأنظار فإذا هو بحالة من الذهول وجحوظ العينين لم يتوقعها ولا يعرف معناها من يراها، عينان مفتوحتان على سعتهما لا تكاد رموشهما تلتقيان، عينان محمرتان كأنما تعبتا من الدمع طول النهار، وشعر أشعث وملابس ملطخة بالوحل وكأنما مرَّغه فيه مصارع غالب، وفم مفتوح يسيل منه اللعاب ولا تخرج منه كلمة، رجل ذاهل أصيب بشيء، نظر إلى الحاضرين وأراد أن أن يرتد على عقبيه، فأخذ بيده أحد الفاطنين بحاله وأدخله حتى أجلسه في عمق الغرفة."[14]

يهدف الوصف في المتن إلى رسم صورة فنية وجمالية وبلاغية، بغية وضع المتلقي داخل المشهد الذي يرنو الروائي إلى نقله. وهو لا يقف عند حدود الأفضية، بل يتعداها إلى سبر أغوار الشخصيات، وإجلاء أحاسيسها النفسية، وإظهار بواطنها...

4_التسريع:

يمثل التسريع عكس الوقفة، وهو وسيلة يلوذ إليها الكاتب لتكثيف زمن الرواية، والرفع من وتيرة سيره. ظهر جليا في:

4_1_التلخيص:

يتم حين "تقدم مدة غير محددة من الحكاية ملخصة بشكل توحي معه بالسرعة"[15]، ويعمل على تسريع توالي الأحداث[16]، والقفز على ما هو أقل أهمية داخل المتن[17]، ويسمى الخلاصة والإيجاز والاختزال.

يتحدث السارد في الفصل السادس والعشرين عن أن عددًا من أهل القرية اكتتبوا في إقامة عرس منوش، وحضروه، ورقصوا فيه، وحُلَّت مشكلة المشاحنات بين لومي وبعض أعدائها، يتحدث عن هذا كله في سطرين وثلاث كلمات فقط[18]. ويذكر في الفصل الخامس والعشرين حملَ الناس جثة بيزين إلى المسجد لتغسيلها، وإلى مثواها الأخير، ورجوعَ الأصهار وقلة من المعزين إلى دار لومي، والحديثَ بينهم حول ما جرى، يذكر ذلك في ستة أسطر ونصف السطر[19]...

4_2_الحذف:

يقصد بالحذف حذفُ مدة من الرواية، والسكوت عنها تماما، و"تخطي مدد زمنية شتى تتلاشى إلى العدم، وتلك هي الحالة القصوى في تسريع الحكاية."[20]

ينبئنا الروائي عن موت بيزين، وحيرة لومي في أمر الحداد، ثم يحذف مدة أربعين يوما، ليخبرنا عن مجيء الأصهار بغية تحديد موعد زفاف منوش[21]. يلاحظ أن هذا الحذف محدد، معلومة مدته.

وهناك حذف غير محدد، يتجلى مثلا في ذكره الحوارَ الذي جرى بين بيزين والسيد فارياس بالمدينة، إذ سلم الثاني الأولَ حقيبة بها مال، ونصحه بالعودة إلى القرية، ثم يحدثنا بعد ذلك مباشرة عن وقوف أول سيارة في القرية قبل غروب الشمس، ونزول بيزينمنها[22]...

ب_الزمان من منظور الشخصيات:

عرض الروائيُّ وجْهاتِ نظر أبطاله إلى الزمان تبعا لمشاربهم المختلفة ومعتقداتهم المتعارضة.

1_الزمان عند محمد بيزين:

كان بيزين في صغره يقضي وقت نهاره في رعي بقر سيده في المسارح الجماعية رفقة غيره من الأولاد والبنات والنساء، ثم يذهب لجلب الحطب وجمع الحشائش. وكانت النساء تكلفنه بفلي القمل من رؤوسهن أمام شمس فصل الخريف. وكان يستيقظ مع أول من يستيقظ، ويغفو مع آخر من يغفو...

لما كبر، صار يرعى الغنم في مراعي الجبال صحبة كلبين له، وكان يخلو بنفسه، ويفضل العزلة، ويتجنب مخالطة غيره من الرعاة، فألف الغابة، وألفته، وأصبح يحدثها، وتحدثه، وزاده الزمن تعمقا في فهم أسرارها، ومنحه قدرة على سبر أغوارها. رآها أمَة من االحجر والشجر مختلفة عكس ما يبدو لغيره من العابرين بها، وشعر أن بينه وبينها ميثاقا، وأنها تهبه نفسها، وتكشف له يوما بعد يوم عن شيء من نقاب محياها...

كان يقضي يومه في مداعبة خواطره الخرقاء داخل أعماق الغابة، ومال إلى كل ما يكرهه الناس، وتمنى لو يكتشف الحمق عينه، وعده إكسيراً نادرَ الوجود، وعده شيئاً ثمينا... وفي أواخر فصل الخريف، كان يعمل في نفض غلة الزيتون والتقاطها، وشحنها في الشاحنات.

أما في المدينة، فقد كان يقضي ليله في حراسة المعمل، ويقعد مع الحارس الآخر قليلا من النهار... ثم تحول حارسا نهاريا، وشرع يتسلل إلى الداخل، ويتعرف المكلفين بالعمل، وضبط أنواعَ الأشغال، وكيفيةَ عمل الآلات، ومكامنَ الربح والخسارة، وأحوالَ العمال...

أمضى بعض وقته في العمل داخل بيت السيد فارياس، وذات مرة، أدخلته السيدة فيبي، بعد أن سافر زوجها إلى الدار البيضاء، غرفة نومها ليلا، ولعبا الورق معا، وتناولا ماء الحياة معا، ووقعا في الرذيلة معا... ثم انساق وراء الملذات والشهْوات، وصار يقيم كل ليلة حفلة في بيته...

عاد إلى القرية، وشارك أهلَها احتفالاتِهم بمناسبة عيد الأضحى المبارك، وكان يخرج صباحا إلى الغابة، ويعود منها متأخرا، ثم طمس السيل الثاني ماله، ففقد عقله، وراح ينام تحت قنطرة إلى أن نهشهثعبان...

2_الزمان عند لومي:

كانت تقضي بعض وقتها في رعي ثلاثة رؤوس من البقر في المسارح، وتلتقي ببيزين هناك، فتحرضه على الثورة في وجه الحساد وعلى من حوله كلهم. حين كان يزروها في بيتها، كانا يجلسان في سرير مصنوع من أغصان الأشجار على علو الطاق المزين بالحبق من الداخل وبالجير على شكل الرموش الكثيفة من الخارج، ويحتسيان الشاي، وتشجعه على الهجرة إلى المدينة...

شاركت سكانَ قريتها في فرجة العيد، وحين مرض بيزين، اِهتمت به اهتماما كبيرا، إذ كانت تزيل أدرانه، وتغير ملابسه، وتحلق شعره، وتناوله أكله وشربه، وتسهر على راحته... حتى غدت لا تجد وقتا للسعي وراء الكسب.

حينما مات بيزين، حزنت عليه حزنا شديدا جدا، وتمنت لو أصابها الجنون معه، وباعت بقرتها الوحيدة، ورفعت دعوة ضد من سرقوا ماله...

3_الزمان عند منوش:

صرفت بعض وقتها في مساعدة أمها في أشغال البيت، وسقي الماء، والتقاط الحشائش والحطب اليابس، وحضرت فرجة العيد، ورقصت. وقضت بعضه الآخر في العناية ببيزين...

ج_الزمان التاريخي:

لقد حدد الروائي زمان روايته التاريخي، إذ جرت أحداثها في القرن العشرين الميلادي (ق:20م)، ويتضح ذلك جليا من خلال إشارته إلى أمور حدثت في مرحلة الاستعمار، فيقول مثلا حين أنصف رجال الدرك بيزين من ظلم أصحاب الأغنام التي أهلكها السيل الأول:

"وقال الناس في القرية:

عجبا! صار هؤلاء النصارى أرحم بالمسلمين من إخوانهم. هذا هو العدل، وإلا فلا! (...)

وقال أحد الورعين والناس يسمعون:

إن الله لا يحب الظلم، إن الله لينصر هذا الدين على يد رجل فاجر."[23]

وأخرى وقعت سنة استقلال المغرب، فيقول:

"لم يتخلص بيزين في ذلك اليوم من ربقة سيده السابق ومن الاستجابة لدعوات المجاملة من بعض الأعيان، ومنهم الشيخ الجديد الذي خلف أباه المتوفى في سنة الاستقلال."[24]

وبعد نيله استقلالَه بسنة ونصف، فيقول:

"وبعد سنة ونصف حصل المغرب على الاستقلال."[25]

وكما هو معلوم، فقد دخل المستعمر أرض المغرب في العقد الأول من القرن العشرين (1907م)، وخرج منها في العقد السادس منه (1956م).

ثانيا:_الفضاء في رواية "السيل"

جرت أحداث رواية "السيل" في فضاء عام هو المغرب، وتوزعت مسيراتِها السرديةَ عدةُ أفضية خاصة، أهمها القرية، والنافذة، والمدينة، والمعمل، وبيت السيد فارياس، وبيت بيزين، والغابة، وجحر الثعبان...

1_القرية:_فضاء الفقر والإستغلال والظلم والجهل والتملق والنفاق

اِشتغل محمد بيزين راعيا عند سيده بدون مقابل مادي، مما جعله فقيرا معدما، وأساء معاملته أكثر من مرة، فتم ضربه ضربا مبرحا، وسجن في غرفة مظلمة مخيفة، ووضعه في قفة، وأنزله بئرا معطلة مهجورة... ونشأ جاهلا أمورا كثيرة، وقف أمامها حائرا مشدوها في المدينة... كما ظلم معظمُ سكان القرية لومي الأرملة، واتهموها في عرضها... ولما قفل بيزين من المدينة وقد تحسنت ظروفه المادية والمعنوية، تسابق الناس نحوه، وحاولوا التملق إليه والتقرب منه بمن فيهم سيده السابق وأصحاب السلطة والجاه. لكنهم، وبمجرد ما أن فقد ماله، وأصيب بالجنون، اِنفضوا من حوله، وتركوه يواجه مصيره، باستثناء لومي التي آزرته، ووقفت إلى جانبه حتى آخر رمق من عمره.

2_النافذة:_فضاء الرائحة الطيبة والإِنفتاح على الجبل

كان محمد بيزين يترك غنمه مع غيره من الرعاة، ويأتي إلى لومي في بيتها، فيجلسان فوق سرير على علو نافذة بيت لومي مصنوعٍ من فروع الأشجار، ويشربان الشاي، وكان يدخل عليهما النسيم المحمل برائحة الحبق الزكية، فيطلان، فيريان الجبل الذي يحول بينهما وبين المدينة (مراكش)، فتشجعه على تجاوزه ليصير رجلا حقيقيا.

3_المدينة:_فضاء التحضر والشغل والمعرفة والثروة

قصد محمد بيزين المدينة، فانبهر بمنشآتها وعمرانها، وارتدى فيها ملابسَ عصرية فاخرة، واشتغل حارسا ليليا في معمل للزيتون بمقابل مادي، ثم ترقى حتى صار شخصية مهمة... وتعرف أشياءَ عديدة كان يجهلها، منها الكتابة، والقراءة، وجهاز المذياع، والكلام بلغة النصارى... وجمع ثروة، وعاد بها إلى القرية كي يتزوج.

4_المعمل:_فضاء الجد والمثابرة والمؤامرات

أدى محمد بيزين واجبه أحسن تأدية، وأخلص فيه إخلاصا قل نظيره، فتحسنت ظروف المعمل، وزاد إنتاجه... فتآمر ضده عاملان اثنان، وقرعا بابه ليلا، وهاجماه، وأغلقا فمه، وجعلاه في كيس كبير من القنب، وأخرجاه، وعلقاه في سقف مخزن في المعمل مظلم خال، وضرباه ضربا مبرحا شديدا، وتركاه إلى أن اكتشفه بعض العمال صباحا.

5_البيت:_فضاء اللعب واللهو والخيانة الزوجية، وتعاطي المحظورات والإغتيالات

لما سافر السيد فارياس إلى الدار البيضاء لتسوية أمور تخص تصدير إنتاج معمله وشراء بعض الآلات، دعت زوجُه فيبي الحارسَ بيزين إلى البيت، ليلعب معها وأولادها الورق. نام الأبناء، وواصلت السيدة والحارس اللعب، وأخذت تطيل النظر إليه، وتحرف اسمه، فتناديه باسم الزّين، وسقته ماء الحياة، فاحتقن وجهه، ونضح عرقه، ثم خرجت إلى الحديقة تترنح في لباس حريري، فتبعها، ثم قصدت غرفة نومها، وتمددت فوق سريرها، وفتحت الشرفة المقابلة بابَ الدار، وأطفأت الأنوار، واكتفت بنور القمر المتسرب إلى الداخل... راودته عن نفسه، فلبى رغبتها، ووقعا في الرذيلة، وخانت زوجها.

وعندما غدا محمد بيزين ذا مال ونفوذ في المعمل، تعاطى مع رفاقه الملذات، منها الخمر والتدخين والنساء والرقص والغناء والاستماع للقيان، وكان يقيم كل ليلة حفلا في بيته، يدعو إليه الرجال والنساء معا، وينفق عليهم من ماله، فبذر مذخراته كلها. وليلة ذات يوم سبت، زاره السيد فارياس وزوجه فيبي، فطلب أحد الراقصين المعربدين من فيبي بأن تراقصه أمام الحاضرين بمن فيهم زوجها، فأبت، وأشهر مسدسه في وجهها، وشرع يهددها، ويرشقها بالأوصاف الساقطة القذرة... حينذاك، أشار بيزين إلى رجل من الجالسين، فأخرج مسدسا، وصوبه في اتجاه الرجل الراقص المعربد، وأطلق عليه رصاصة، فأرداه قتيلا...

6_الغابة:_فضاء الأمن والدمار

عشق محمد بيزين الغابة، وكان يشعر داخلها بالراحة والطمأنينة، وشكلت لديه ملاذا من الناس، وأطلعته على خباياها وأسرارها، فأمنت نفسه فيها، واستأمنها على ثروته، وخبأها فيها... وفي المقابل، زرعت بعض المخاوف بداخله، وأحس بها تطرده وتلفظه من أحشائها لما هاجمه السيل الأول، ودمر قطيعه، وجر عليه تعذيب الناس وظلمهم له... وحين طمس السيل الثاني ماله أو قذفه إلى مكان بعيد يجهله، ففقد عقله، ولقي حتفه.

7_الجحر:_فضاء الموت

خَالَ محمد بيزين، بعد أن فقد عقله، أن الثعبان هو الذي سرق منه ماله، وأدخل يده في جحره، فنهشه، وقضى نحبه، ووجد وقد علت زرقةٌ لحمَه...

خلاصة:

رُغم وجود تقنيات الإستباق والإسترجاع والتعطيل والتسريع، فإن ذلك لم يُخِلَّ بالتسلسل المنطقي العادي للرواية، ولم ينل من غائيتها، إذ إن السارد كان يطوي الأيام والشهور والسنوات سعياً إلى وضع نهاية أرادها للشخصيات القطبية، وفي مقدمتها محمد بيزين، وحوسا، ولومي وابنتها منوش.

ومزج بين ما هو تاريخي وما هو متخيل داخل جنس الرواية، معتمداً عنصرَ التاريخ إطاراً عاما، اِنفتح عليه بشكل غير واضح. وقع هذا الانفتاح من خلال التفاعل مع شروط مرحلة تاريخية معينة، ثم إن احتواء "السيل" تقنياتٍ أدبيةً مثل الحوار والوصف والتعدد اللغوي... يزيحها عن حقل التاريخ، ويبعدها عنه.كما أن المتن يؤرخ للبادية والمدينة المغربيتين، ويعكس بعض مظاهر مغرب المرحلة الاستعمارية والمرحلة الموالية لها مباشرة.

إذا كان بعض الروائيين ينطلقون من الحقيقة التاريخية أو من التاريخ الواقعي المتحقق في اتجاه تقنية التخييل، وهو ما يعرف بعملية أَخْيَلَة التاريخي، فإن أحمد التوفيق قد تجاوز ذلك إلى تقنية مضاعفة، أضافت إلى قضية أخيلة التاريخي عملية أَرْخَنَة الخيالي. وأقام نوعاً من الحوار أو صنفاً من المزاوجة بين الرواية والتاريخ، إذ عاد إليه دون أن ينغمس فيه كليا، أو يجعله غاية في حد ذاته، بل اتخذه وسيلة للتمويه، وإضفاء شيء من الواقعية على عمله، وبلوغ الحقيقة الروائية. فهو قد اشتغل في ميدان التاريخ أعواما ليست قليلة، ولكنه حين أراد أن يبتعد عنه قليلا، ألفى نفسه مشدوداً إلى إغراءات حقل الإبداع الروائي السردي.

ووظف نوعين من الفضاء متناقضين متكاملين في الوقت نفسه، أولهما يدل على الحياة والأمن والمعرفة والتحضر والجد والعمل والمثابرة والثروة واللعب واللهو (المعمل والمدينة والنافذة والغابة)، وثانيهما يوحي بالموت والدمار والفقر والإستغلال والظلم والجهل والنفاق والتملق والتآمر والغدر والإغتيالات والخيانة وتعاطي المحظورات (القرية والمعمل والغابة والجحر)، ولقد تكامل هذان الفضاءان، ليبرزا الصورةَ ونقيضَها، وليعكسا الشيءَ ومقابلَه...

الهوامش:

[1]_Roland Bourneuf _Real Ouellet:L'univers du roman. 1[ére]édition, Presses Universitaires de France (P. U. F), Paris_France 1972, page:97.

2_ميشيل رايمونوآخرون:الفضاء الروائي. ترجمة:عبد الرحيم حزل، تقديم:حسن بحراوي، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء_المغرب 2002م. ص:63.

3_أحمد التوفيق:السيل. دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1998م.

4_أحمد التوفيق:روائي مغربي، ولد عام ثلاثة وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية (1943م) بالقرب من مدينة مراكش. اِهتم بتاريخ البادية المغربية الإجتماعي خلال القرن التاسع عشر الميلادي (ق:19م)، وبفن الرواية كتابة... له روايات أخَر، منها:

_جارات أبي موسى. دار القبة الزرقاء للنشر والخدمات الثقافية، مراكش، الطبعة الثالثة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1425هـ_2004م.

_شجيرة حناء وقمر. دار القبة الزرقاء للنشر والخدمات الثقافية، مراكش، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1419هـ_1998م.

_غريبة الحسين. الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1421هـ_2000م.

5_أحمد التوفيق:السيل. صص:5_7.

6_المرجع نفسه. صص:26_28.

7_نفسه. ص:89.

8_Gérard Genette:Figuires III. Editions du Seuil, Paris_France 1972, page:82.

9_أحمد التوفيق:السيل. صص:26_39.

10_المرجع نفسه. صص:66_67 و124_145.

11_قدامة بن جعفر:نقد الشعر. تحقيق وتعليق:محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، بدون تاريخ.ص:130.

12_الحسن بن رشيق:العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده. حققه، وفصله، وعلق على حواشيه:محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الخامسة، بيروت_لبنان 1401هـ_1981م. الجزء الثاني، ص:294.

13_أحمد التوفيق:السيل. صص:30_31.

14_المرجع نفسه. صص:121_122.

15_جيرار جينيت وآخرون:نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير. ترجمة:مصطفى ناجي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، مطبعة منشورات كوثر، الدار البيضاء_المغرب 1989م. ص:126.

16_Jean Michel Adam:lerécit. que sais_je?, 1ère édition, PressesUniversitaires de France (P.U.F), Paris_France 1984, page:42.

17_Roland Bourneuf _Real Ouellet:L'univers du roman. Page:59.

18_أحمد التوفيق:السيل. ص:148.

19_المرجع نفسه. ص:145.

20_جان ريكاردو:قضايا الرواية الحديثة. ترجمة وتعليق:صياح الجهيم، وزارة الثقافة، دمشق_سوريا 1977م، ص:254.

21_أحمد التوفيق:السيل. ص:146.

22_المرجع نفسه. ص:36.

23_نفسه. ص:46.

24_نفسه. ص:98.

25_نفسه. ص:79.

المصادر والمراجع

أ_ باللغة العربية:

1. أحمد التوفيق:جارات أبي موسى. دار القبة الزرقاء للنشر والخدمات الثقافية، مراكش، الطبعة الثالثة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1425هـ_2004م.
2. أحمد التوفيق:السيل. دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1998م.
3. أحمد التوفيق:شجيرة حناء وقمر. دار القبة الزرقاء للنشر والخدمات الثقافية، مراكش، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1419هـ_1998م.
4. أحمد التوفيق:غريبة الحسين. الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء_المغرب 1421هـ_2000م.
5. جان ريكاردو:قضايا الرواية الحديثة. ترجمة وتعليق:صياح الجهيم، وزارة الثقافة، دمشق_سوريا 1977م.

6. جيرار جينيت وآخرون:نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير. ترجمة:مصطفى ناجي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، مطبعة منشورات كوثر، الدار البيضاء_المغرب 1989م.
7. الحسن بن رشيق:العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده. حققه، وفصله، وعلق على حواشيه:محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الخامسة، بيروت_لبنان 1401هـ_1981م.
8. قدامة بن جعفر:نقد الشعر. تحقيق وتعليق:محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت_لبنان، بدون تاريخ.
9. ميشيل رايمونوآخرون:الفضاء الروائي. ترجمة:عبد الرحيم حزل، تقديم:حسن بحراوي، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء_المغرب 2002م.

ب_باللغة الفرنسية:

10. Gérard Genette:Figuires III. Editions du Seuil, Paris_France 1972.
11. Jean Michel Adam:lerécit. que sais_je?, 1ère édition, PressesUniversitaires de France (P. U. F), Paris_France 1984.
12. Roland Bourneuf _Real Ouellet:L'univers du roman. 1ére édition, PressesUniversitaires de France (P. U. F), Paris_France 1972.